شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام •

الدكتور علي محمد المبوبي

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

لقد فتح أبو طالب — عم النبي — بابَ الحديث عن محمد بن عبدالله — صلى الله عليه وآله — وصفاته وطبيعة العلاقة به وما حباهُ اللهُ من التأييد والنصر المؤزر ، بعد أنْ دعت الدواعي إلى ذلك والأسباب ،من اجتماع قومه القرشيين على الإساءة له والكيد به ، إنَّ محمداً (ص) ميمون الطلعة ، مباركُ الناصية ،ثمالُ اليتامى، عصمة للأرامل، (١):

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوَجْهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل
يلوذُ به الهلّاكُ من آل هاشمٍ فهم عنده في رحمةٍ وفواضل

وما ذاك كلّ ما تخلّق به محمدٌ — صلى الله عليه وآله وسلم — واتصف ، بل عنده رائعُ الأخلاق ومأثورُ الصفات ، منَ الحلم والرشد والعدل والرزانة والايمان بالله :

فلا زالَ في الدنيا جمالاً لأهلها وزَيْناً لمن والاه ربُّ المشاكل
فمنْ مثله في الناس أي مؤمّلٍ إذا قاسهُ الحكامُ عند التفاضل
حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غيرُ طائشٍ يُوالي إلاهاً ليس عنه بغافل

ولهذا خُصَّ بالحب من الأهل والتأييد والنصر من ربّ العباد ، في موقف مواجهة الشانئين له والكائدين الذين أنضوا مطيّهم في سُبُل الشنآن والكيد والوقيعة :

لقد علموا أنَّ ابننا لامكذَّبٌ لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمدٌ في أرومةٍ تقصر عنه سَوْرَةُ المتطاول
حدِبْتُ بنفسي دونه وحميته ودافعتُ عنه بالذرا والكلاكل
فأيده ربّ العباد بنصره وأظهرَ ديناً حقه غيرُ باطل

فالصفاتُ المأثورة وافرة تتصدّرها صفة الإيمان بالله ، والعلاقاتُ الباعثة على الإشادة تنتهي إلى علاقتين ، علاقة القرابة القريبة ، فهو الابنُ الصادقُ المستحقُ للحدب والحماية والدفاع ، وعلاقة الله الوثيقة المتمثلة في هذا الدين الحق الذي حمل محمدٌ أعباءه وأظهره للناس .

ولئن تنخلنا الصفات والعلاقات بغيةَ الاهتداء إلى الجديد رأينا الإيمان بالله صفةً متميزة ، وتأييدَ الله بالنصر علاقةً ظاهرةً تقود أمثالها وتهيءُ إلى ماينطوي تحتها من

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام ج١ ص ٢٩٥ — ٢٩٩ .

السمات والأسماء ، فاذا بأبي طالب نفسه يعلن على الملأ من قريش أنّ محمداً نبي كموسى « خُطَّ في أول الكُتُب» ، بقوله (١) : ـ

ألـمْ تعلمـوا أنّا وَجدْنـا مُحمّـداً نبيّاً كموسى خُط في أو ل الكتب

وهذا الإعلانُ أرتبط بموقف قريش من الاسلام عندما رأتْ فشوه في القبائل ، فاجتمع أعيانُها ، وأتمروا بينهم أنْ يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم ، وبني المطلب ، على أنْ لاينكحوا اليهم ولا يُنكحوهم ، ولايبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفةٍ ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ... » (٢) ، فالمعاني تتساوق مع الأحداث والمواقف .

فنحن أمام صفاتٍ وعلاقاتٍ تأخذ نصيبها المفروضَ وحصتها المقررة من الحديث ، تبعاً لمواقف القائلين وتكوينهم الثقافي وطبيعة ارتباطهم برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مصدر الوحي والإلهام ، وينبوع العاطفة والوجدان .

فالصفات التي فتّق أبو طالبٍ أكمامها حذا آخرون حذوه في الاهتمام بها والوقوف عندها ، فجاءت بين مألوفةٍ معهودة لافضل لمديحها الاّ في حسن الصياغة ومزية البيان ، وبين جديدة غير مألوفةٍ ولا معهودة لمديحها الفضل في حسن الصياغة ومزية البيان ، وسواء أكانت هذه أمْ تلك ، أمْ هما معاً ، فلا ريب أنها أفصحت عن شخصية الرسول (ص) على نحوٍ يروقُ ويعجب ، ويدعو إلى مزيدٍ من التأمل وانعام النظر .

فهذا طالبُ بن أبي طالب ـ بعدَ أنْ بكى قتلى قريشٍ يوم بدر ـ التفت إلى رسول الله (ص) فمدَحهُ بالصفات المتعارفة المألوفة ، من قوله (٣) :

فمـا إنْ جنينا فـي قريشٍ عظيمةً سوى أنْ حمينا خيرَ منْ وطيءَ الثرى
أخا ثقـةٍ في النـائبات مُرزّءاً كريـماً نقاهُ لا بخيلاً ولا ذَرْبـا
يطيفُ بـه العافون يغشون بابهُ يؤمون بحْراً لا نزوراً ولا صرْبا

فالرسولُ الذي هو خيرُ من وطيءَ الثراب أخو ثقةٍ في النائبات لا ينكص عند الروع ، بل يُركن إليه ويُعتمد عليه ، كريم مفرطُ الكرم كالبحر غزارة وتدفقاً ، يقصده العافون ، طلباً لنواله وعطائه للغمر .

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام ـ١ ص ٣٧٨ .
(٢) نفس المصدر : ـ١ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .
(٣) نفس المصدر : ـ ٣ ص٢٨ .

وقال مالكُ بن نمط ذاكراً شجاعة رسول الله وكرمه المفرطين (١) :

فما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها ... أشدَّ على أعدائه من مُحمّد
وأعطى إذا ما طالبُ العُرف جاءَهُ ... وأمضى بحدّ المشرفيّ المهنّد

ولما ردَّ رسولُ الله — صلى الله عليه وآله وسلم — سبايا هوازن سأل عن مالك بن عوف النصريّ ما فعل، فقال له قومه : «هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم ، : أخبروا مالكاً أنّه إنْ أتاني مُسْلماً رددتُ عليه أهله وماله، وأعطيتُهُ مئة من الابل»، فلما جاءه وردَّ عليه أهله وماله وبالغ في إكرامه ، قال فيه — بعد أنْ أسلم (٢) : —

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناس كلهم بمثل مُحمّد
أوفى وأعطى للجزيل إذا آجتدي ... ومتى تشأ يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عردَّتْ أنيابها ... بالسمهريّ وضرب كل مهنّد
فكأنه ليثٌ على أشباله ... وسطَ الهباءة خادرٌ في مرْصد

إنَّ محمداً — صلواتُ الله وسلامه عليه — فاق الناس طُرّاً في الوفاء والكرم والعلم والشجاعة .

ورأى مالكُ بن عوف في الشجاعة مجالاً طيباً يُحبّب اليه الحديث ويُغْريه به إغراءاً، فآستحضر الحربَ وأبصرَ رهجها وعثيرها المتصاعد المتراكب، وفرسانها الحاسرين وكُماتها المعلمين ، ورماحها اللدنة وسيوفها المرهفة الباترة، وخيولها الضامرة ، وسمع القعقعةَ والصهيلَ والصياحَ والعويلَ ، فأثاره محمدٌ وَسْط رجاله كالأسد الخادر بين أشباله ، استعداداً للنزال وتهيوءاً للمصاولة والقتال .

ومحمد — عند حسّان بن ثابت في هجائه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الذي كان قد هجا رسولَ الله قبل أنْ يُسْلم — المباركُ، البرُ، الحنيفُ ، الوفيُ ، أمين الله (٣) : —

هجوتَ مُباركاً برّاً حنيفاً ... أمينَ الله شيمتُهُ الوفاءُ

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص٢٤٦ .
(٢) نفس المصدر : جـ٤ص١٣٤ .
(٣) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص٦٦

ومحمد – عند حسّان أيضاً في نقضه لشعر عبدالله بن الزبعرى الذي بكى فيه قتلى معركة بدر – النبيُّ ، الماجدُ ذو الهمة ، السمحُ الطبيعة ، الجريء الشجاع ، الكريمُ ، الوفي ، بقوله (١) : –

وذكرتَ منّا ماجداً ذا همّةٍ سمْحَ الخلائق صادق الإقدام
أعني النبيَّ أخا المكارم والندى وأبرّ من يُولي على الأقسام
فلمثله ولمثل ما يدعو له كان المُمدَّح ثم غيرَ كهام

ومحمدٌ – عند كعب بن مالك – أحمدُ الذي بدا به نورٌ ساطع من هدى الله (٢) : –

وأبلغ أبا سفيان أنّ قد بدالنا بأحمدَ نورٌ من هُدى الله ساطعُ

ونقعُ على نعوتٍ لمحمدٍ – صلى الله عليه وسلم – تختلف كثرةً واحتفالاً باختلاف القائلين والمواقف الداعية لهم ، على نحو : أحمد المتخير ، والمصطفى ، وأحمد المصطفى ، والنبيّ المهتدي ، والمهدي ، والهادي ، والنبيّ المرسل ، ورسول المليك ، وعبدالإله ، ورسول إله الخلق ، وخاتم النباء ، ولكن أحفل هذا النعوت بالرعاية والذكر نعتا الرسول ، – ورسول الله ، فهما من المأثور الذي لا مناصّ من ذكره ، فضلاً عن شيوعهما واجتماع الناس عليهما.

ونظر حسّان بن ثابت إلى رسول الله (ص) عند استشهاد جعفر بن أبي طالب ، رضوان الله عليه – في موقعة مؤتة ، وتحدث عن الرسول (ص) من خلال حديثه عن آل هاشم وإشادته برجالهم ، من عقيل وجعفر وعلي أبناء أبي طالب ، وحمزة والعباس ابني عبد المطلب. فهم البهاليلُ ، وبهم تفرج الشدائد ، لأنهم أولياءُ الله ، الذين أنزل حكمه عليهم ، بتقدمهم في المكانة وبُعد الشان والخطر عند الله والناس أحمدُ المتخير ، إذ قال (٣) :

وكنا نرى في جعفرٍ من محمدٍ وفاءً وأمراً حازماً حين يأمُر
فما زال في الإسلام من آل هاشمٍ دعائمُ عزّ لايزُلْن ومفخرُ

---

(١) نفس المصدر : جـ٣ص١٦ ؛ وديوان حسان بن ثابت ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر : جـ٢ص٨٧ ، وديوان كعب بن مالك ص ٢١٩ .

(٣) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص٢٦ – ٢٧ ، وديوان حسان بن ثابت ص ٢٢٣ .

هُمُ جبلُ الإسلام والناسُ حولهم رضام إلى طودٍ يروقُ ويقهرُ
بهاليلُ منهم جعفرٌ وابن أمّة عليٌّ ومنهم أحمدُ المتخيرُ
وحمزةُ والعباسُ منهم ومنهمُ عقيلٌ وماءُ العود من حيث يعصرُ
بهم تُفرجُ اللأواءُ في كل مأزق عماسٍ إذا ماضاق بالناس مصدرُ
همُ أولياءُ اللّه أنزل حكمهُ عليهم ، وفيهم ذا الكتاب المُطهّرُ

كما نظر كعبُ بن مالك إلى رسول اللّه — (ص) — عند آستشهاد جعفر ، فتحدث عنه من خلال حديثه عن آل هاشم وما يتفردون به عن الناس في ميادين الخلال الرفيعة والسجايا المأثورة ، إذ قال : (١)

قومٌ بهم عصمَ الالهُ عبادَهُ وعليهمُ نزلَ الكتابُ المنزل
فضلوا المعاشرَ عزّةً وتكرُّماً وتغمدّتْ أحلامهُمْ من يجهل
لا يطلقون إلى السّفاه حُبا هم وَيُرى خطيبُهُم بحق يفصلُ
بيض الوجوه تُرى بطونُ اكفهمْ تندى اذا اعتذر الزمانُ المحلُ
وبهديهم رضي الإلهُ لخلقه وبجدّهم نصر النبيُّ المرسلُ

وكان للاعتذار نصيب في جدّة الصفات وتنوعها والبراعة في الحديث عنها ، فهناك أمارات المهيبة والجلال والسلطان ، ومتباينُ النعوت والخلال ، لأن المواقفَ المداهمة تفتق قرائح الشعراء ، وتستخرج أبكارَ المعاني والأفكار ، طلباً للنجاة من الموت ونطع السياف .

لقد أولع عددٌ من الشعراء بهجاء رسول الله (ص) وصحبه ، وبالغوا في الهجاء حتى اهدر دماءهم ، فلما وقعوا في حبالته واشرأب اليهم الحتفُ بعنقه تهاووا رُعباً ، وتبادروا إليه آعتذاراً وتنصلاً من كل ما فرط منهم من سالف الذنب وغابر الجريرة والإثم .

كان رسولُ الله — صلى الله عليه وآله وسلم — عند أبي عزة الجُمحيّ ، الداعيَ إلى الحق والهدى ، وصاحبَ المنزلة السامقة والمكانة الرفيعة ، والقوة القاهرة التي تقمع تطاولَ المناوىء وترفعُ قدر المسالم (٢) المعاهد :

منْ مبلغ عني الرسولَ مُحمّداً بإنّك حقٌ والمليكُ حميدُ

---

(١) نفس المصدر : حـ٤ ص٢٨ ، وديوان كعب بن مالك ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .
(٢) السيرة النبوية : لابن هشام حـ٢ ص٣١٥ .

وأنت امرؤ تدعو الى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيدُ
وأنت امرؤ بُوئتَ فينا مباءةً لها درجات سهلة وصعود
فإنّك منْ حاربته لمحاربٌ شقيٌ ومَنْ سالمته لسعيدُ

وكان رسول الله (ص) عند عبدالله بن الزبعري ، رسولَ المليك ، والنذيرَ، وَسْط مظاهر الاستعطاف والاعتراف والانابة إلى الله والاستعداد للدفاع ومواجهة الأعداء الألداء (١) :

يا رسولَ المليك إنّ لساني راتقٌ ما فتقتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أباري الشيطان في سنن الـ غيّ ومنْ مال ميلهُ مثبورُ
آمن اللجمُ والعظامُ لربي ثم قلبي الشهيدُ أنت النذير
إنني عنك زاجرٌ ثم حيّاً من لؤي وكلهمْ مغرورُ

وكلما أمعن عبدُالله بن الزبعرى في الاستعطاف وأوغل في نعت واقعه المشين المثقل بالهموم والأوصاب خوفاً من البطش والنكال كلما وفق في الاهتداء إلى معانٍ وصورٍ للرسول تحف بها المهابة والجلال ، كقوله (٢) :

منع الرقادَ بلابلٌ وَهمومُ والليل معتلجُ الرُّواق بهيمُ
مما أتاني أنّ أحمدَ لامني فيه فبتُّ كأنّني محمومُ
ياخيرَ منْ حملتْ على أوصالها عيرانة سرُحُ اليدين غشومُ
إني لمعتذرٌ اليك منَ الذي أسديتُ إذْ أنا في الضلال أهيمُ
أيّام تأمُرني بأغوى خُطّةٍ سهْمٌ وتأمرني بها مخزومُ
وأمدُّ أسبابَ الردى ويقودُني أمرُ الغواة وامرهمْ مشئومُ
فاليومَ آمن بالنّبيّ مُحمّدٍ قلبي ومخطيءُ هذه محرومُ
مضت العداوةُ وانقضت أسبابها ودَعتْ أواصر بيننا وَحلومُ
فاغفرْ فِدىً لك والدي كلاهما زَللي فإنّك راحمٌ مرحومُ
وعليك من علْم المليك علامةٌ نور أغرُ وخاتمٌ مختومُ

---

(١) نفس المصدر : حـ٤ص٦١ .

(٢) نفس المصدر : حـ٤ص٦١ — ٦٢ .

أعطاك ، بعد محبّة ، برهانهُ شرفاً وبرهانُ الإله عظيمُ
ولقد شهدتُ بأنّ دينك صادقٌ حقٌ وأنّك في العباد جسيمُ
واللهُ يشهدُ أنّ أحمدَ مُصطفىً مُستقبل في الصالحين كريمُ
قرْم علا بنيانُهُ من هاشم فرعٌ تمكن في الندا وأرومُ

وقال أنسُ بن زنيم الديلي يعتذر إلى رسول الله (ص) مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي (١) :

أ أنتَ الذي تُهدىَ معدٌ بأمره بل اللهُ يهديهم وقال لك اشْهد
وما حملتْ من ناقةٍ فوق رحلها أبرَّ وأوفى ذمةً من مُحمّدِ
أحثَّ على خيرٍ وأسبغ نائلاً إذا راح كالسيف الصقيل المُهنّد
واكسى لبرد الحال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابق المتجرد
تعلمْ رَسُولَ الله أنّك مُدركي وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلّم رَسُولَ الله أنّك قادرٌ على كل صرْم مُتهمين ومُنجد
تعلّمْ بأنّ الركبَ ركبَ عُويمرٍ هم الكاذبون المخلفو كلّ موْعد
وَنبوا رَسولَ الله أنسي هجوته فلا حملتْ سوطي إليَّ إذن يدي
سوى أنني قد قلتُ ويلُ امّ فتيةٍ أصيبوا بنحسٍ لا بطلْق وأسْعُد

ويستمر في التعليل إلى النهاية .

واذا اسقطنا حديث كعب بن زهير عن سعاد والناقة وأردنا مدحَ الرسول (ص) لوقعنا عليه مشوباً بالاعتذار اليه والاسترسال فيه . وما ذاك بذي رَيْبٍ بعد الذي كان منه حيالَ الرسول من التعرض والهجاء ، وما كتب اليه أخوه بجير يخوّفه مغبة المشاقة والعناد والمجاهرة بالسوء ، إذ قال له : « وإنّ منْ بقي من شعراء قريش ، ابن الزبعرى وهبيرة ابن أبي وَهْب ، قد هربوا في كل وَجْهٍ ، فإنْ كانت لك في نفسك حاجةٌ فطر إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فإنّه لايقتل أحداً جاءه تائباً ، وانْ أنت لم تفعلْ فانجُ إلى نجائك من الأرض » (٢) ، ولكن ماكان إلى النجاء من سبيل بعد أنْ ضاقت عليه الأرض برحبها

(١) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ ص٦٦ — ٦٧ .

(٢) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص١٤٤ .

وأرجف به من كان في حيّه ، فيمّم وجهه صوبَ المدينة ، ووضع يده ، في يد الرسول صلوات الله وسلامه عليه — ثم ابتدره بمديحه وذكر خوفه وارجافَ الوشاة به .

واجه كعبٌ الرسولَ وحيداً ، وسيفُ المنية يتراءى لعينيه ويوشك أنْ يطيح برأسه ، مؤمناً أنّ كل ما قدّر الرحمنُ مفعول ، وانّ كل انسان صائر إلى الموت طالتْ سلامتهُ أو قصرت ، فلامناص من توطين النفس على المواجهة واستقبال العواقب بصبرٍ وايمان(١) :

تسعى الغواةُ جنابيها وقولهمُ إنك يابن أبي سلمى لمقتولُ
وقالَ كلُ صديقٍ كنتُ آمله لا ألهينّك إني عنك مشغولُ
فقلتُ خلوا سبيلي لا أبالكمُ فكلُ ما قدرّ الرحمن مفعولُ
كلُ ابن أنثى وان طالت سلامتهُ يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ

لقد اجتمع على كعب الغواةُ والأصدقاءُ ، فالغواة يرجفون به وبخوفونه ويقولون له : « إنّك يابن أبي سلمى لمقتول » ، والاصدقاءُ يتنصلون من تبعة مؤازرته ، ويخلون بينه وبين عاقبته الرهيبة ، وهؤلاء عنده أشدُّ من الأولين ، لأنهم المرّجون في الشدائد واللّزبات ، فلما نفضوا أيديهم وأشاحوا بوجوههم عنه صاح بهم — والمرارةُ ملءُ فيه وظلى الخيبة يحرق أحشاءه — خلوا سبيلي، فهناك القدرُ المكتوبُ على كل ابن أنثى مهما أنسيء في أجله وتراخت منيته .

كان لا محيص عن هذه الصرخة العاتية ، فهو أمام الرسول الذي أهدر دمه ، وان يفلت من قبضته لو انطوتْ عليه الصحاري الفيح والمهامه المقفرة . فلما أراد ان يصغي رسولَ الله (ص) الحديثَ كان عنده «رسول الله» الذي خصّ بالقرآن ، فهو المأمولُ بالعفو والصفح الجميل :

نبئتُ أنّ رسولَ اللّه أوعدني والعفوُ عند رسول اللّه مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ

فالرسولُ هو المأمولُ بالعفو بما خصّهُ الله به من جليل المنزلة وسامق المكانة فأعطاه القرآنَ العظيمَ، تنويهاً بقدره، واعتماداً عليه وحده.

أما العفو فيقومُ على الإعراض عن أقوال الوشاة والاشاحة عنهم ، فهم المفسدون الساعون إلى الوقيعة ، واقوالهمْ هي الفسادُ والكذبُ والبهتان :

(١) نفس المصدر :ج٤ص١٤٤ — ١٥٦ ، وديوان كعب بن زهير :ص ١٩ — ٢٣ .

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنبْ ولو كثرتْ في الأقاويلُ

ويقوم العفوُ أيضاً على تقدير الحال التي آل اليها والمصير المحزن الذي انتهى اليه، من الخوف الجاثم والفرَق المقيم :

لقد أقومُ مقاماً لو يقومُ به أرى وأسمعُ مالو يسْمعُ الفيلُ
لظلَّ يرعدُ إلاّ أنْ يكون له من الرسول بإذن الله تنويلُ
حتى وَضعتُ يميني ما أنازعهُ في كفِّ ذي نقماتٍ قيلُهُ القيلُ
فلهو اخوفُ عندي إذْ أكلمهُ وقيل إنّك منسوبٌ ومسئولُ
منْ ضيغم بضراء الأرض محذُرُه في بطن عثّر غيلٌ دونه غيلُ
يغدو فيلحمُ ضرغامين عيْشهما لحمٌ من الناس معْفورٌ خراديلُ
إذا يساورُ قرناً لا يحل له أنْ يترك القرنَ إلاّ وهو مفلولُ
منه تظل سباعُ الجو نافرةً ولا تمشّى بواديه الأراجيلُ
ولايزالُ بواديه أخو ثقةٍ مضرجُ البز والدرْسان مأكولُ

لقد اخذتْ كعباً رهبةٌ عاصفةٌ اضطرب لها كيانهُ وغاض ماءُ رشاده، حين مثل بين يدي رسول الله (ص) ، ودار بخلده أنْ لو وقف الفيلُ هذا الموقف لاضطراب مثله وفزع ، ولبقي في اضطرابه وفزعه حتى يسكّنه الرسولُ ويرّد اليه أمنه وهدوءهُ . وما خصَّ الفيل بالذكر إلاّ لأنه اراد التعظيم والتهويل ، فما من دابةٍ على الأرض تفوقه في عظم الجثة وسلطان الهيبة .

ولما وضع كعبٌ يده في يد الرسول (ص) وأيقن أنه سيسأله عن سالف جرائره وآثامه ازداد اضطراباً وفزعاً، فكان الرسولُ عنده أخوف من أسدٍ حائر على صفات القوة والبأس والشجاعة النادرة .

ورأى كعبٌ أنْ يتحدث عن هذا الأسد، فاذابه متميزٌ على أضرابه من الأسود في قوة الشكيمة والطبيعة، فهو لايوائب الضعيفَ ولا الجبانَ وانما يوائب نظيره في الشجاعة والقوة، فينقض عليه فيرديه، ويطرح ثيابه ممزقةً معفرةً ،حتى خافته السباعُ والناس .

ثم إنَّ رسولَ الله (ص) نورٌ يستضاءُ به، وسيفٌ مسلولٌ من سيوف الله ، وحوله عصبة من قريش تذب عنه وتتسابق إلى مصافحة الظبا استجابة لأوامره :

إنَّ الرسولَ لنورٌ يستضاءُ بـه مُهندٌ من سيوف الله مسلول
في عصْبةٍ من قريشٍ قال قائلهمْ ببطن مكـة لما أسلمـوا زولـوا

إن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لم ينلْ من كعب سوى الاعتراف بأنه رسولُ الله ، والنورُ الذي يستضاءُ به، والسيف المسلول ، وقد خصَّه اللهُ بالكرامة الكبرى، كرامة النبوة والقرآن العظيم .

ولما انتقل الرسولُ الكريم — صلى الله عليه وآله وسلم — إلى الرفيق الأعلى أثار ذلك حسان بن ثابت، وأهاج كامن مشاعره وأحاسيسه ،فسكبها في قصيدتين ومقطوعتين، سكباً اختلف قوة وعنفاً، وغزارة وانفعالاً .

ففي القصيدة الأولى سجل آثارَ الراحل الشاخصة، والدموعَ الهتوفة التي تفجرتْ منه ومن أصحابه ومودّعيه، وتحدث عن خلاله الكريمة وأعراقه الزكية ونعَمه الظاهرة في العباد والبلاد .

كانت الآثارُ الشاخصةُ يد للرسول (ص) والتي ازدانتْ بها طيبة وزهَتْ على كل الحواضر والأمصار ممثلةً بالمعهدِ المنير والمنبر القائم والآثارِ الواضحةِ والمعالم الباقية والمصلى والمسجد والحجرات التي كان الوحي يملؤها نوراً وهَّاجاً (١) :

بطيبة رَسْمٌ للرَّسولِ ومَعْهدٌ منيرٌ وقد تعفو الرسومُ وتهمدُ
ولاتمحى الآياتُ من دارِ حرمةٍ بها منبرُ الهادي الذي كان يصْعَدُ
وَواضحُ آثـارٍ وباقي مَعالمٍ وَربعٌ له فيه مصلى ومَسْجدُ
بها حجراتٌ كان ينزل وَسْطها من الله نورٍ يستضاءُ ويُوقدُ

إنَّ هذه المعارف التي لم تطمس على العهد آياتها، ولم تعفُ وتهمدُ كرَّ الجديدين وتعاورَ الملوين هي التي عرفَ بها رسَم الرسول وعهده ،وعرف القبر الذي احتواه وأطبق أجفانه عليه ، فطفق يبكي بحرقةٍ ،وطفقت نفسهُ تذوبُ أسىً وحسرة، كلما تصوَّره ثاوياً لايجيرُ جواباً ولاينبس ببنت شفة ، وانما الصمتُ المطبقُ والسكون الهامد :

معارفُ لم تطمس على العهد آيها أتاهـا البلى فالآيُ منهـا تجددُ
عرفتُ بها رَسْم الرسول وَعهْدهُ وقبراً بها واراهُ في الترب ملحدُ

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام ج٤ص٣١٧ — ٣٢٠ .

ظللتُ بها أبكي الرسولَ فأسعدتْ عيونٌ ومثلاها من الجفن تُسعدُ
يُذكرن آلاءَ الرسول ومأثرى لها محصياً نفسي فنفسي تبادُ
مُفجعةً قد شفَّها فقدُ أحمد فظلت لآلاء الرسول تُعددُ
وَمابلغتْ من كل أمرٍ عشيرهُ ولكنْ لنفسي بعدُ ماقد توجد
أطالتْ وقوفاً تذرفُ العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمدُ

ومادام الرسولُ (ص) بهذه الآلاء التي لايُحصيها أحدٌ فليبارك القبر الذي ضمَّه البلادَ التي ثوى فيها :

فبوركتَ ياقبر الرسول وبوركتْ بلادٌ ثوى فيها الرشيدُ المُسددُ
وَبوُرِك لحدٌ منك ضمَّن طيباً عليه بناءٌ من صفيحٍ مُنضَّدُ

وقف حسَّانُ أمامَ هذه الأطلال وأنعم النظر والفكر فيها فاذابها ينبوعٌ يتفجر بالذكريات وبالأحزان في آن معاً، ذكرياتٌ مضمخةٌ بعطر أحمد — صلوات الله وسلامه عليه — وأنفاسه ،وغدوّه ورواحه، وسكونه واضطرابه، وتأمله وتهجّده ،وحديثه وصلاته ، وأحزانٌ تتضافرُ العينان والنفسُ في الإفصاح عنها وبيان آمادها ومراميها ، من دموعٍ لاتكفُّ عن الجريان، ونفسٍ لاتقلع عن الوجيب والاضطراب :

وقاد حديثُ القبرِ إلى تذكر حال الصَّحْبِ الكرام الذين واروا جدث النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — ونضّدوا الصفيحَ عليه، وآبوا بحزنٍ ثقيل هدَّ ظهورهم وأعضادهم ، وفجَّر الدموعَ من مآقيهم، فقد انقطع الوحيُ ، وانطفأ النورُ الذي كان يعم الوهادَ والنجادَ ، والسهولَ والأغوار :

تهيلُ عليه الترب أيد وأعينٌ عليه وقد غارتْ بذلك أسْعُدُ
لقد غيبّوا حِلْماً وعِلْماً ورحمةً عشية علّوهُ الثرى لايُوسدُ
وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيُّهمْ وقد وهنتْ منهم ظهورٌ وأعضُدُ
يُبكوْن مَنْ تبكي السمواتُ يومه ومَنْ قد بكته الأرضُ فالناسُ أكمدُ
وهل عدلت يوماً رزيّةُ هالكٍ رزيّة يوم ماتِ فيه مُحمّدُ؟
تقطع فيه منزلُ الوحي عنهمُ وقد كان ذا نورٍ يَنورُ ويُنجدُ

كما قاد حديثُ الصَّحْبِ الكرامِ إلى استجلاء خلاله الرفيعة وأعماله الباهرة ، فالرسولُ —صلوات الله وسلامه عليه— هو الامامُ الداعي إلى الله، والهادي إلى الحق، والمجاهد في سبيله، والمنقذ من هول الرزايا، والحاث على الصدق والاعتصام به، والعفو عن الزلات،

والقابل العذر ، والمضطلع بحمل الأعباء الثقال ، والحريص على صحبه ، الغيور عليهم ، والعطوف الرحيم :

يَدلُ على الرحمن مَن يقتدي بهِ ... وينقذ من هول الخزايا ويُرشِدُ
إمام لهم يَهْديهمُ الحقَ جاهداً ... معلّم صدقٍ إنْ يطيعوه يُسْعَدوا
عَفوٌ عن الزلات يقبلُ عذرَهُمْ ... وإنْ يُحسِنوا فالله بالخيرِ أجودُ
وإن نابَ أمرٌ لم يقوموا بحمله ... فمن عنده تيسيرُ مايتشدَّدُ
فبيناهُمُ في نعمةِ اللهِ بينهم ... دليلٌ به نهجُ الطريقة يقصدُ
عزيزٌ عليه أنْ يجوروا عن الهدى ... حريصٌ على ان يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لأيثني جناحَهُ ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهدُ

فهو بين الصحب نورٌ يُبَدد حنادسَ الظلام ، فلما أقصده سهمُ الموت آب إلى الله محموداً ، واقفرت منه البلادُ ، واوحشت بقاعُها ، وعرصاتها وربوعها ، وأخذ الصمتُ الثقيل بأنفاسها ، فلم تعد تعرف غير الوجوم والهمود .

واتخذ حسّانُ من مخاطبة عينهِ ودعوتها بالبكاء سبباً للأوبة إلى ذكر مناقب رسول الله (ص) التي تفرّد بها ، وفاق الناس أجمعين :

ومَا فَقَدَ الماضون مثلَ محمّدٍ ... ولإمثلُهُ حتى القيامة يُفْقَدُ
أصفَّ وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ ... واقربَ منه نائلاً لا ينكدُ
وأبذلَ منه للطريف وتالدٍ ... إذا ضن معطاهُ بما كان يتلدُ
واكرمَ صيتاً في البيوت إذا انتمى ... واكرم جَدّاً أبطحياً يُسَودُ
وامنعَ ذَرْوات واثبت في العُلا ... دعائم عزٍ شاهقات تشيّدُ
واثبت فرعاً في الفروع ومنبتاً ... وعوداً غذاه الحزنُ فالعودُ أغيدُ
رَباهُ وليداً فاستتم تمامه ... على اكرم الخيرات ربٌ ممجّدُ

فمن كان اللهُ رباه فلاغرو إنْ بزّ الخلق في رفيع النعوت والأوصاف وجليل الخلال والآثار .

ثم كان تطلعُ حسّان إلى الخلود في الجنة مع المصطفى داعياً إلى دوام الثناء والأطراء :

وليس هواي نَازعاً عن ثنائهِ ... لعلي بهِ في جنة الخلد أخلدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جواره ... وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهدُ

فالحديث عن الرسول سبيلُ الفوز برضا اللهِ والخلود في الجنة وبلوغ أسمى الغايات وأعلى المراتب والدرجات :

وفي القصيدة الثانية استرعاه يوم وفاته ، وهو يوم الاثنين ، وأوضح ماعراه والأنصار من الجزع والضيق

فهو مسهد قلق لم تطعم عينه النوم كأنما كحلت بكحل الأرمد ، شاردُ اللب حائر ، لايستقر له قرار ولا يطمئن إلى حال ، يؤثر سمّ الأساود أو قضاءَ الله النافذ العاجل ، راحةً من عذاب الواقع ، واستمتاعاً بلقاء الحبيب في جنة الفردوس (١) : —

مابالُ عينكَ لاتنامُ كأنما ... كحلتْ ماقيها بكحل الأرمدِ
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً ... ياخيرَ مَنْ وطىء الحصى لاتبعدِ
وجهي يقيك الترب لهفي ليتني ... غيبتُ قبلك في بقيع الغرقد
بأبي وامي مَن شهدت وفاته ... في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظلات بعد وفاته متبلداً ... متلدداً ياليتني لم أولدِ
أأقيمُ بعدكَ بالمدينة بينهم ... ياليتني صبحتُ سمَّ الأسودِ
أوحَلَّ أمرُ الله فينا عاجلاً ... في روحةٍ من يومنا أو من غدِ
فنقوم ساعتنا فنلقى طيباً ... مخضاً ضرائبه كريمَ المحتدِ

وأثار — بعد ذلك — أمرين ، احدهما الحديث عن آمنة — أم النبي — التي جاءت به نوراً أضاءَ البريةِ كلها ، وثانيهما الدعاءُ إلى الله أنْ يجمعه بالنبي في جنة الفردوس :

يابكرَ آمنةَ المبارك بكرُها ... ولدته مُحْصنة بسعد الأسعُدِ
نوراً أضاءَ على البسيطة كلها ... مَنْ يهدَ للنور المبارك يَهْتدي
يارَبِّ فاجمعنا معاً ونبينا ... في جنةٍ تثني عُيونَ الحسّدِ
في جنةِ الفردوس فاكتبها لنا ... ياذا الجلال وذا العلا والسوددِ
والأنصار ضاقت بهم البلادُ ... وأصبحتْ وجوههمْ سوداءَ كالحة من هول الخطب وفداحة الرزء :

ياوَيْحَ أنصارِ النبي ورهطه ... بعد المُغيبِ في سواء الملحدِ

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص٣٢٠ ، وديوان حسان بن ثابت : ص٢٠٨ — ٢٠٩.

ضاقتْ بالانصار البلادُ فأصبحوا سُوداً وجوهَهُم كلون الإثمد
ولقد ولدناهُ وفينا قبرُهُ وفضولُ نعمتهِ بنا لم نجحد
واللهُ اكرمنا به وهدّى به أنصارَهُ في كل ساعةِ مشهدِ

وما نحسبُ الأنصارَ غير قومه الذينَ ولدوا رسول اللهِ (ص) وجرّتْ عليهم فضول نعمتهِ ، عندما اكرمهم اللهُ به وهداهم من الضلالة والعمى ، كما أنه ماساق الحديث عنهم وأعرب عما أصابهم لرحيله إلاّ لارتباطه بأمراس العصبية وأواصر القرابة ، وابتلائه بداء التباهي والاعتداد بالمآثر والأفعال .

ثم ارتقى حسّانُ إلى قولٍ فيه الجلالُ والمهابةُ والجمال ، حيث قال :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمدِ

ياله من مشهد يأخذ بمجامع القلوب ، نرى الله فيه والملائكة والطيبين يصلون على أحمد المبارك !

أما المقطوعتان فقد أثارتا أمرين جديدين ، هما : الحديث عن المساكين — في المقطوعة الأولى — بعد أنْ فارقهم الخير مع الراحل الكريم ، بقوله (١):

نبئت المساكين أن الخير فارقهم
مع النبيّ تولى عنهمُ سحرا

والحديث عن نسائه — في المقطوعة الثانية — وما أمسين فيه من الحزن والبؤس بقوله : —

أمسى نساؤك عطلاً من البيوت فما يضربن فوق قناستر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المباذل قد أيقن بالبؤس بعد النعمة البادى

وبين هذين الحديثين أحاديث تدخل في المأثور مما تناوله حسّان بن ثابت من قبل وعرض له . أما العلاقات فهي الأخرى قد فتّق أبو طالب أكمامها ، وحذا آخرون حذْوَهُ في الاهتمام بها والوقوفِ عندها ، ثم فاقوه وأربوا عليه ، استجابة للمواقف والظروف والأهواء ، حتى تنوعتْ على أيديهم وحفلتْ بضروبِ الأحاديث ومختلف المشاعر والأحاسيس ، وما ذاك

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص٣٢١ ، وديوان حسان بن ثابت : ص٢١٠ .
(٢) نفس المصدر : لابن هشام جـ٤ص٣٢٢ ، وديوان حسان بن ثابت : ص٢٠٨ .

بذي رَيْبٍ ، وعلى الصعيد مشركون تتزعمهم قريش وشعراؤها ، وحاقدون يقودهم اليهودُ ومسلمون مفتونون برسول الله (ص) مأخوذون بهذا الدين الذي أنقذهم من ضلال الشرك وانتشلهم من هوة الأحقادِ والعداوات إلى أرض الوحدة والوئام ، والأمن والسلام .

ان قريشا ما إنْ واجَهَها الرسولُ (ص) بدعوته حتى سخرتْ به وأغرتْ سفهاءها للنيل منه ، ثم ارتفعتْ فناوأته وجاهرتْ بعداوته وشنآنه ، وأجلبت عليه بخيلها ورَجْلها ، وجرّدتْ أسلحتها ، وأطلقت السنتها ، ودعت شعراءَها إلى خوض غمراتِ الهجاء على غرار ماساقت فرسانها إلى لظى الحرب والدماء .

ولم يكن المسلمون بمنأىً عما كانت قريشٌ تفعله وتعدُّ له من القول والفعل ، فهذا كعبُ بن مالك ذكر مانزل بالنبيّ من قريش من بذيء الكلام والجهر بالعداوة ، بقوله (١) :

رمتهُ معدٌ بعورِ الكلام ونَبل العداوه لاتأتلي

واوضح حسّان بن ثابت أن القرشيينَ في يوم الخندق كانوا ظلموا الرسول (ص) حين ساروا بجمعهم اليه وألبوا أهلَ البوادي والحواضر عليه ، بقوله (٢) :

واشكُ الهمومَ إلى الإله وما ترى من مَعْشرٍ ظلموا الرَّسولَ غضابِ
ساروا بأجمعهم اليه وألبوا أهلَ القرى وبوادِي الاعرابِ

فلما كف اللهُ بأسهم ودفع شرهم ومزق شملهم قرّتْ عين محمدٍ وعيون أصحابه :

وأقرّ عينَ محمدٍ وصحابهِ واذلَّ كلَّ مكذّب مرتابِ

ولم ينْسَ أبو أحمد بن جَحْش الأسدي — بعد أنْ شرحَ اللهُ صدره للأسلام ويسّر له الهجرة إلى المدينة — أنْ يذكرَ القرشيين الطغاة السائرين في ركاب إبليس ، المضمرين الكيدَ والغدرَ بالمسلمين ، أما قومهُ من بني أسد بن خزيمة فكانوا المؤمنين بالنبي ودينه ، المستمتعين بهذا الأيمان ؛ (٣)

طغَوا وتمنّوا كذبة وأزلهمْ عن الحق إبليسٌ فخابوا وخيبّوا
ورِعْنا إلى قول النبي محمدٍ فطابَ ولاة الحقِ منا وطيّبوا

ولما اطمأنتِ الحَبَشَةُ بالمهاجرين اليها من المسلمين ، وحمدوا جوارَ النجاشي الذي

(١) السيرة النبوية : لابن هشام حـ٣ص١٧٢ ، وديوان كعب بن مالك : ص٢٥٤ .
(٢) نفس المصدر : لابن هشام حـ٣ ، ص٢٧٠.
(٣) السيرة النبوية : لابن هشام : حـ٢ص ١١٧

أكرمَ مثواهم ، وعبّدوا اللهَ دونما خوف أو وجل ، قال عبدُ الله بن الحارث السّهْمي مفتخراً بأنهم تبعوا رسولَ الله (ص) على حين أعرض عنه الآخرون وخانوا في الموازين(١) :

إنّا تبعنا رَسولَ اللهِ واطّرحوا قولَ النبيّ وعالوا في الموازين

فالاثنان – أبو أحمد بنَ جحش وعبدالله بن الحارث – أوضحا موقفَ المناوئين للنبيّ والمتعلقين به، على جهة الزراية بالأولين والتعريضِ بهم ووَصمهمْ بالانصياع لإبليس وإعراضهم عن الحق ، والفخر بالآخرين والاعتدادِ بهم والإشادة بسماعهم قول النبيّ ومتابعتهم له.

اما عبدُالله بن رواحة فقد حكَمَ على القرشيين أنهم كفارٌ ، ولهذا أمرهم أنْ يخلوا عن سبيل رسول اللهِ ، ليدخل مكة معتمراً (٢) :

خلّوا بني الكفار عن سَبيلهِ خلوا فكل الخيرِ في رسولهِ

يا ربِّ إنّي مؤمن بقيلهِ أعرفُ حق اللهِ في قبوله

وتميزَ رجالٌ بالعداء لرسول اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – منهم أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، ابن عم النبيّ. وعبد اللهِ بن الزبعرى ، اللذان تعرّضا لرسولِ الله ووقعا فيه، حتى تصدّى لهما مَنْ ردَّ كيدهما وأفحمهما.

توجّه حسّان بن ثابت نحو أبي سفيان بن الحارث فعرّض به ، مستَفهماً أنْ يتعرض مثله للرسول بالهجاء وماهو بكفء له ، في قوله (٣) :

هَجوتَ محمداً وأجبتُ عنه وعند اللهِ في ذاك الجزاءُ

أتهجوهُ ولَسْتَ له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء

وتوجّه كعبُ بن مالك صَوْبَ عبدالله بن الزبعري الذي تطاول بالهجاء على رسول الله وتمادى فيه ، فقال (٤) :

---

(١) نفس المصدر : ج١ص٣٥٤ .

(٢) نفس المصدر: لابن هشام ج٤ص١٣، وديوان عبد الله بن رواحه ص١٠١ – ١٠٢ .

(٣) السيرة النبوية :لابن هشام ج٤ص٦٥ .

(٤) نفس المصدر : ج٣ص١٦٩، وديوان كعب بن مالك :ص٢٧٧.

ثبجستَ تهجو رسول المليـ ـك قاتلكَ الله جلفاً لعنا
تقولُ الخنَا ثم ترمي بـه نقيَّ الثياب تقياً أمينا

فهذه هي علاقةُ قريشٍ برسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – قد قامت على العداوة الصريحة التي لاهوادة فيها ولالين، ونهج شعراؤها نهجها ارتباطاً وتعصّباً، أو إيماناً وعقيدة .

وأثار الشعراءُ المسلمون الحديثَ عن حياة الرسول الله (ص) في مكة والمدينة ، وما لقي من الأذى والعذاب وجفاء الأقارب والأحباب حتى قيّض الله له الأنصارَ الذين خفوا اليه وبايعوه ودعوه اليهم ، فلما لبى الدعوة أحدقوا به ونصروه وآزروهُ ، وبذلوا له الأنفسَ والأموال، وجاهروا مناوئيه بأسلحتهم والسنتهم، بإيمان صادقٍ وعزمٍ مكين.

لقد قصَّ أبو قيس صرْمة بن أبي أنس حياة الرسول (ص) في مكة والمدينة ، موجزاً في الأولى، مسْهباً في الثانية، مشيداً بمآثر الأنصارِ ومواقفهمْ الرائعة في سبيل نصرة الرسول والتمكين لدينه في الأرض ، بقوله (١) :

ثوى في قريشٍ بضعَ عشْرةَ حجّةً يذكرُ لو يلقَى صديقاً مواتيا
ويعرضُ في أهل المواسمِ نفسه فلم يرَ مَنْ يؤوي ولم يرَ داعيا
فلما أتانا أظهرَ اللهُ دينَـهُ فأصبح مَسْروراً بطيبة راضيا
والفى صَديقاً واطمأنّت به النوى وكان له عوناً من الله باديا
يقصُّ لنا ما قال نوحٌ لقومه وما قال موسى إذْ أجابَ المناديا
فأصبحَ لايخشى من الناسِ واحداً قريباً ولا يخشى من الناس ناثيا
بذلْنا لـه الأموالَ من حل مالنا وانفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلمُ أنَّ اللهَ لاشيءَ غيرُهُ ونعلمُ أن الله أفضلُ هاديا
نهادي الذي عادى من الناس كلهم جميعاً وانْ كان الحبيبَ المصافيا

ولا نظنُ ضآلةَ حديث أبي قيسٍ عن حياة الرسول (ص) الأولى جهْلاً بها أو رغبة في التجاوز عنها ، ولكن الحياة الثانية هي المقصودة والمبتغاة ، لكي تظهر دور الأنصار

---

(١) نفس المصدر : ج٢ ص١٥٨– ١٥٩ .

الرائع عندما أتاهم واستقر بينهم واستبدل بمكة طيبة مدينتهم، فوجد الأصدقاءَ والأعوان، والأموال، وطعم السرورَ والأمنَ، وذاقَ الحبَ والتفاني والانصياعَ للأمر والواجب، بعد أن تجرع مرارة الإزراء والإعراض من قريش بضع عشرة حجة، واشاحة اهل المواسم بوجوههم عنه.

ولئن جمعَ أبو قيس الحياتين لوناً من الجمع فإن حسّانَ بن ثابت اهتم بالحياة الثانية وأعرض عن الأولى فلم يذكرها أدنى ذكر، وعاش مع الثانية مفتوناً بقومه وأفعالهم التي تعلي من أقدارهم، بقوله (١):

فلما أتانا الرسولُ الرشيد ... دُ بالحقِ والنورِ بعد الظلم
قلنا صدقت رسول المليك ... هلم الينا وفينا أقم
فنشهدَ أنك عبدُ الإلـ ... ـهِ أرسلتَ نوراً بدين قيم
فإما وأولادُنا جنة ... نقيك وفي مالنا فاحتكم
فنحن أولئك إنْ كذّبوك ... فنادِ نداءً ولا تحتشم
وَادِ بما كنتَ أخفيتَهُ ... نداءً جهاراً ولا تكتتم

كان اهتمامُ حسّان بقومه – في هذا الحديث – يفوق اهتمام أبي قيس، فقد تعلق بهم، وأجرى الحديثَ كله على ألسنتهم، فهم الذين دعوا الرسولَ اليهم، وطلبوا منه الاقامة فيهم، وشهدوا أنه عبدُ الله، أرسلَ بالدين القيم، وجعلوا أنفسهم وأولادهم وقاءً له، وتركوا أموالهم يتصرف بها كما يحلو له، ودعوه أنْ يجهر بدعوته ولا يحتشم، ويملأ الأسماع والبقاع بعميق النداء.

فهو الفخر الخالص الذي تصيح في جوانبه العصبية وتهيب به القرابةُ، وإلاّ لتحدث عن الرسول وأثره فيهم على غرار ما تحدث عن قومه وسرد مآثرهم ومواقفهم.

والتقى المسلمون برسول الله (ص) في المدينة، وفي كنائنهم صحائفُ سودٌ من تاريخهم المشئوم، حين كانوا لايلتقون إلاّ على حرب ولا يفترقون إلاّ على موعد حرب، حتى صارت الأشلاءُ طعامهم، والدماءُ شرابهم، والأحن والأحقاد مما يدور على ألسنتهم ويستقر في أعماقهم، فطرحوا كلَّ ذلك عنهم، وأقبلوا خفافاً على أجنحة الشوق، للقاء الرسول، يحملون له الحب، ويَصبُون إلى الأمن، ويتطلعون إلى الخير، ويشرئبون إلى الهداية.

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام حـ٤ص٢٠٣، وديوان حسان بن ثابت: ص ١٣٩.

وما كان الشعراءُ على غرارهم في عمقِ الأحساس ، وحرارة التطلع إلى التغيير ، وإنْ تفاوتوا – أي الشعراء – في ذلك، وأسهموا في الأحداث ،وتحدثوا عنها وأصحوا عن مشاعرهم نحوها ، خاضعين لمختلف المؤثرات ، مابين قديمةٍ وجديدة. فهم أمام حروب يخوض أقوامهمْ بحورَها ويتصلون حرَّ لظاها ، ولكن مع رسول الله (ص) لقتال مناوئيه المجلبين عليه ، والمجاهرين بمشاقة الله والاعتداد بعبادة الأصنام والأوثان .

لقد ذكر كعب بن مالك التفافَ الأوس حول رسول اللهِ (ص) ونهوضَ بني النجار بجمعهم معه ، وسَير الجميع إلى الحرب والطعان بروح الايمان الراسخ واليقين القويّ بوحدانية الله ونبوة محمد بن عبدالله ، فقال (١) :

وفينا رسولُ اللهِ والأوس حوله ... له مَعْقل منهم عزيزٌ وناصرُ
وجَمعُ بني النجّار تحت لوائه ... يمشّون في المأذيِّ والنقعُ ثائرُ
فلما لقيناهمْ وكلٌّ مجاهدٌ ... لأصحابهِ مستبسلُ النفس صابرُ
شهدنا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غيرُهُ ... وأنَّ رسولَ اللهِ بالحقِ ظاهرُ

وانتقل فذكر القتلى من قريش ، أولئك الذين كفروا بربهم ووَصموا رسول اللهِ بوَصْمة السحر ، فذاقوا حر السيوف، وموعدهم جهنمُ في الآخرة :

فأمسوا وقودَ النار في مستقرها ... وكلُّ كفورٍ في جهنم صائرُ
تلظى عليهم وهي قد شبَّ حَمْيُها ... بزبرِ الحديد والحجارة ساجرُ
وكان رسولُ الله قد قال أقبلوا ... فولوا وقالوا : إنّما أنتَ ساحرُ
لأمر أرادَ اللهُ أنْ يَهلكوا به ... وليس لأمر حمّه اللهُ زاجرُ

ذاك موقفُ الأوس وبني النجار يوم بَدْر عندما أحدقوا برسول الله (ص) وَدبوا إلى الحرب بالدروع ، واقتحموا غبارها الثائر ، أحتساباً وإيماناً بالله ورسوله .

وأشار حسّانُ بن ثابت إلى دور قومه يوم بَدْرٍ أيضاً : عندما واجهوا قريشاً، غير آبهين لقولهم وتهديدهم ، معتصمين بحبل اللهِ ،وفيهم الرسولُ الهادي إلى الحق (٢) :

---

(١) السيرة النبوية :لابن هشام ج٣ص١٥ ، وديوان كعب بن مالك: ص ٢٠٠ .

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج٣ص٢١ ، وديوان حسان بن ثابت: ص ٢٤٢.

ثم وردنا ولم نسمعْ لقولكم حتى شربنا رواهٌ غير تصريدِ
مستعصمين بحبلٍ غير منجذمٍ مستحكمٍ من حبال الله ممدودِ
فينا الرسولُ وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصرٌ غير محدودِ

ذاك منطقُ التحدي والاعتداد بالقوة والزهو بها ،لاعتصامهم بحبل اللهِ القوي المتين ، واتباعهم الرسول الكريم .

وذكر كعبُ بن مالك أفعال قومه يوم أحد ، ثم انتقل إلى رسول الله(ص) والتفافهم حوله ، وما هو فيه من سَنَيّ الخلال ، بقوله (١) :

فينا الرسول شهابٌ ثم يتبعه نور مضيءٌ له فضلٌ على الشهبِ
الحقُ منطقهُ والعدلُ سيرتهُ فمن يجبْهُ إليه ينتجُ من تَبَبِ
نجدُ المقدّم ، ماضي الهمِ ،معتزمٌ حين القلوبُ على رَجْف من الرُّعبِ
يَمْضي ويذمرنا عن غير معْصيةٍ كأنه البدرُ لم يطبعْ على الكذبِ
بَدا لنا فاتّبعناه نصدّقه وكذبّوه فكنا أسعدَ العَربِ

وبعد أن ،ْ زها كعبُ بن مالك بفعل قومه يوم الخندق ، وأوضح ما أعدوا من السلاح انتقل إلى رسول الله(ص) فتحدث عنه من خلال علاقة قومه به ومواقفهم معه ، من الطاعة والامتثال للامر ، وطاعة كل مَنْ يتبع قول النبي ، بقوله (٢) :

ونطيع أمرَ نبينا ونجيبهُ وإذا دعا لكريهة لم نسْبَق
ومتى ينادِ إلى الشدائد نأتها وَمتى نَرِ الحوماتِ فيها نعْنقِ
مَنْ يتبعُ قولَ النبيّ فإنّه فينا مطاعُ الأمر حقّ مصدّقِ
فبذاك ينصرنا ويظهرُ عزّنا ويصيبنا من نيل ذاك بمرفقِ
إنّ الذين يكذّبونَ محمداً كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

إنّ هذا الحديث مربوط بقوة العلاقة برسول الله(ص) ومتانةِ الالتزام ، وهذان ظاهران ـالقوة والمتانة ـ في الطاعة وتلبية النداء. فإذا أمرهم أطاعوه وانصاعوا له ، وإذا ناداهم إلى الشدائد لبّوه وخاضوا معه حوماتها لايلوون على شيء ولايتخاذلون .

---

(١) نفس المصدر : لابن هشام ج٣ص ١٧٠ ، وديوان كعب بن مالك : ص ١٧٤ .
(٢) السيرة النبوية : لابن هشام ج٣ص ٢٧٥ ، وديوان كعب بن مالك: ص ٢٤٧ .

واتخذ عبّاس بن مرداس من أمّ فروة سبباً إلى الحديث عن رجال سليم وبلائهم الرائع ومواقفهم المشهودة في نصرة رسول الله (ص) حتى نالوا رضاه ، بقوله : (١)

إمّا تري يا أمّ فروة خيلنا منها معطلة تقادُ وظلّعُ

ثم انتقل إلى الحديث عن الرسول : ـ

فهناك إذ نصرَ النبيُّ بألفنا عقد النبيّ لنا لواءً يلمعُ
فزنا برايته وأورث عقدهُ مجدَ الحياة وسودداً لا ينزعُ
وغداة نحن مع النبيّ جناحهُ ببطاح مكةَ والقنا يتهزع
كانت إجابتنا لداعي ربّنا بالحق منا حاسرٌ ومقنعُ

فماذا كان من الرسول بعد الذي رآه من بلاء بني سليم وصبرهم وجلادهم وجهادهم معه؟

حتى إذا قال الرسولُ محمدٌ أبني سليم قد وفيتم فارفعوا
رُحنا ولولا نحنُ أجحف بأسهمْ بالمؤمنين وأحرزوا ماجمّعوا

وهكذا ملاالفخر بقومه أوداجه فعزا نصر النبي إلى رجال سليم الذين فازوا بالراية وأجابوه وثبتوا معه ، ولولاهم لنال المشركون من المؤمنين وآحتووا أموالهم .

كما اتخذ من أمّ مؤمل سبباً إلى الحديث عن قومه بني سليم ، والاشادة بموقفهم الرائع مع النبيّ يوم حنين ، فقال (٢) :

تقطّع باقي وَصلِ أم مؤمّلِ بعاقبةٍ وستبدّلتْ نيّةً خلفَا

واتجه نحو النبي وقومه : ـ

وانّا مع الهادى النبيء محمّدٍ وفينا ولم يَستَوفها معشرٌ ألفَا
بفتيان صدق من سليمٍ أعزّةٍ أطاعوا فما يَعصون من أمره حرفا

فلما حط رحاله بفناء قومه راح يتطلع إلى أفعال الرجال وصولاتهم في نصرة دين الله بمكة عندما وطئوا المشركين. وطأة ثقيلة .

وظل قومهُ موضعَ الزهو والاشادة كلما تأملهم يقودهم الضحاكُ لمواجهة قبيلة هوازن في معركة حنين الضارية ، ثم ينعطف بهم صَوْبَ مكة مع الجموع الزاحفة للفتح ، والقضاء

(١) السيرة النبوية: لابن هشام جـ٤ص١٠٤، وديوان العباس بن مرداس: ص ٧٧ .
(٢) السيرة النبوية: لابن هشام جـ٤ص١٠٧، وديوان العاس بن مرداس : ص ٨٨ .

على آخر معاقل الشرك التي مازالت تتعلق بها افئدة المكابرين المناوئين من العرب، فقال(١) : —

فانْ فإنْ تبتغي الكفارَ غيرَ ملومةٍ ... فإنّي وزيرٌ للنبيّ وتابع
دَعانا اليهم خيرُ وفدٍ علمتهم ... خزيمةُ والنّوارُ منهم وواسعُ
فجئنا بألفٍ من سليمٍ عليهم ... لبوسٌ لهم من نَسيج داودَ رائع
نبايعه بالأخشبين وانما ... يَدُ اللهِ بين الأخشبين نبايعُ
فجسْنا مع المَهْدي مكة عَنْوةً ، بأسيافنا والنقعُ كابٍ وساطع
عَلانيةً والخيلُ يغشى متونَها ... حَميمٌ وآنٍ من دَمِ الجوف ناقعُ
ويوم حنَين حين سَارتْ هوازنٌ ... الينا وضاقتْ بالنفوس الأضالعُ
صَبَرنا مع الضحاكِ لايَسْتفزنا ... قراعُ الأعادي منهم والوقائعُ
أمام رسول اللهِ يخفق فوقنا ... لواءٌ كخذروف السحابة لامع
عَشيّة ضحاكُ بن سفيان معتصٍ ... بسيف رسول الله والموت مانع
نَذودُ أخانا عن أخينا ولو نرى ... قصالا لكنا الأقربين نتابع
ولكنَّ دينَ اللهِ دينُ محمدٍ ... رَضينا بهِ فيه الهدى والشرائع
أقامَ به بعد الضلالةِ أمَرنا ... وليس لأمرٍ حَمّهُ اللهُ دافع

ولما سار الرسول (ص) — بالمسلمين إلى الطائف حين فرغ من حنين ، ذكر كعبُ ابن مالك مسير القوم ، وهدَّد الأعداءَ بهم ، ثم وقف عند الرسول ، فقال (٢) :

وانّا قد أتيناهمْ بزحف ... يحيط بسور حصنهمُ صفوفا
رئيهم رئيسهمُ النبيُّ وكان صلْباً ... نقيُّ القلب مصْطبراً عَزُوفا
رشيدَ الأمر ذو حكمٍ وعلمٍ ... وحلمٍ لم يكن نزقاً خفيفاً
نطيعُ نبينا ونطيعُ ربّاً ... هو الرحمن كان بنا رَؤوفا

أما حسّان بن ثابت فقد ذكر الشهداءَ من قومه وبلاءهمْ ومواجهتهم الموت ، أجابة للهِ ، كما ذكر سبقهم إلى الاسلام والتزامهم به ، دونما تراجع أو تخاذل ، فقال : — (٣)

فذلك اخيرَ العباد بلاؤنا ... أجابتنا للهِ والموتُ ناقعُ
لنا القدمُ الأولى اليك وخلفنا ... لأولنا في ملّةِ اللهِ تابع

(١) السيرة النبوية: لابن هشام جـ٤ص١٠٦، وديوان العباس بن مرداس: ص ٨٠ .
(٢) السيرة النبوية: لابن هشام: جـ٤ص١٢٢، وديوان كعب بن مالك: ص٢٣٦ .
(٣) نفس المصدر: لابن هشام جـ٣ص٢٨٣، وديوان حسان بن ثابت: ص٢٤١ .

ونعلم أنَّ الملكَ لله وَحْدَهُ وأنَّ قضاءَ اللهِ لابدَّ واقعُ

وبهذا تباين هؤلاء الشعراءُ في التعبير عن مواقف قومهم وعلاقتهم برسول الله (ص) تبايناً ينبي عن اختلاف الإيمان وطبيعة الارتباط .

ورأى شعراءُ أنْ يتحدثوا عن رسول الله (ص) وعلاقته بالله ، حين أرسله داعياً إلى الحق ومبلّغاً أمرَه ، فصدع بأمر الله لايني فيه أو ينكص كما كان موسى من قبل . فهذا حسّان بن ثابت روى عن الله حقيقة محمدٍ وما بلغ به وألقى عليه من الأمر والتكليف بقوله (١) :

وقال الله قد أرسلتُ عبْداً يقولُ الحقَّ إنْ نفعَ البلاءُ
شهدتُ به فقوموا صدّقوه فقلتم لانقومُ ولا نشاءُ
وقال اللهُ قد سيّرتُ جنداً همُ الأنصارُ عرضتها اللقاءُ

ولما انتصر المسلمون على قبيلة هوازن يوم حنين قال عباس بن مرْداس مبلّغاً بعْضَ الرجال من أمثال غيلان بن سلمة ، وعروة بن مسعود الثقفيين حقيقة محمد وصفته وعلاقته بالنبوة (٢) :

ألا مَنْ مبلغٌ غيلان عني وسوف إخالُ يأتيه الخبيرُ
وعروة إنما أهدي جواباً وقولاً غير قولكما يسيرُ
بأن محمداً عبد رسول لربّ لايضلُ ولا يجور
وجدْناهُ نبيّاً مثل موسى فكل فتى بخايرُهُ مخيرُ

وتحدث عن علاقته بالله ، مبيّناً قوة هذه العلاقة ومتانتها ، بقوله (٣) :

مَنْ مبلغُ الأقوام أنّ محمداً رسولَ الإله راشدٌ حيث ريمما
دعا ربّه واستنصر اللهَ وَحْدَهُ فأصبح قد وفّى إليه وأنعما

(١) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٤ص٦٥ ، وديوان حسان بن ثابت : ص ٧٤ .
(٢) نفس المصدر : لابن هشام جـ٤ص٩٣ ، وديوان العباس بن مرداس : ص ٤٩ .
(٣) نفس المصدر : لابن هشام جـ٤ص١١٢ ، وديوان العباس بن مرداس : ص ١٠١ .

ورأى عباس بن مرداس أنْ يخاطبَ الرسولَ (ص) ويقرره أنه خاتم الأنبياء، ومرسل من الله بالحق، وهو الذي سمّاه محمداً، حباً منه له ، بقوله (١) :

يا خاتم النّباء إنّك مرسَلٌ ... بالحق كلُ هدى السبيل هداكا
إنّ الإله بنى عليك محبّة ... في خَلْقه ومحمداً سمّاكا

ولما تهيأ المسلمون للخروج إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، أتى عبد الله بن رواحة رسول الله فودّعه، ثم قال له (٢) :

أنت الرسولُ فمن يحرم نوافله ... والوجهَ منه فقد أزرى به القدرُ
فثبّت اللهُ ماآتاك من حَسَنٍ ... في المرسلين ونصراً كالذي نصروا
إني تفرستُ فيك الخير نافلةً ... فراسة خالفت فيك الذي نظروا

قال ابن هشام : « وهذه الأبيات في قصيدة له» .

وكان في الإمكان أنْ يجيدَ في مدح الرسول (ص) ويحسن الحديث عنه، ولكن الحرب اختطفته سريعاً ، دون أن يشهد من الأحداث ماتذكي قريحته فتفيض بالرائع من المعاني والصور .

ولم يغفل الشعراءُ أنْ يسجلوا بعْض أقوال النبي وأفعاله تسجيلَ روايةٍ وسرد، أو تجاوب وانفعال ،وفق المواقف والأهواء .

لقد رُوى عن عائشة — رضي الله عنها — أنها قالت : « لما أمر رسولُ الله (ص) بالقتلى أنْ يطرحوا في القليب ... وقف عليهم رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : ياأهل القليب ! هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدتُ ماوعدني ربي حقاً . . . فقال له أصحابه : يارسول الله ! أتكلمُ قوماً موتى ! فقال لهم : لقد علموا أنّ ماوعدهم ربهم حقاً » .

ورُوي على نحوٍ آخر ، من « أن رسول الله (ص) قال يوم هذه المقالة : ياأهل القليب ! بئس عشيرة النبيّ كنتم لنبيكم ! كذّبتموني وصدّقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، ثم قال : هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ؟ » (٣) .

(١) السيرة النبوية : لابن هشام : جـ٤ ص١٠٣ ، وديوان العباس بن مرداس : ص ٩٥ .
(٢) نفس المصدر : لابن هشام : جـ٤ ص١٦ ، وديوان عبدالله بن رواحة : ص ٩٣ .
(٣) السيرة النبوية : لابن هشام جـ٢ ص٢٩١ — ٢٩٣ .

أشار حسّان بن ثابت إلى هذا المعنى في قصيدة له ، بقوله (١) :

يناديهم رسولُ اللّهِ لما ... قذفناهم كباكبَ في القليبِ
ألم تجدوا كلامي كان حقاً ... وأمرُ اللّهِ يأخذُ بالقلوب ؟
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا: ... صدقت وكنت ذا رأي مصيب !

بعد أنْ أشاد بقومه الذين وقفوا مع رسول الله (ص) في معركة بدرٍ وآزروه وحاربوا أعداءه، وجندلوا سراتهم على الصَّعيد .

وتعرَّض المشركون للصحابي خبيب بن عَديّ — رضي الله عنه — فقتلوه، فأقبل حسّان يخاطبهم — بأسىً وحسرة — ويَستنطقهم عن موقفهم إذا ما التقى بهم رسولُ اللّهِ يوم القيامة وسألهم عن فحوى قتلهم خبيباً هذا، بقوله (٢) : —

ماذا تقولون إنْ قال النبي لكم ... حين الملائكةُ الأبرارُ في الأُفقِ
فيم قتلتم شهيدَ الله في رجلٍ ... طاغٍ قد اوعث في البلدان والرفقِ

وكان خبيب هذا من بين الصحابة الذين أرسلهم رسولُ الله (ص مع رَهْطٍ من عَضَلٍ والقارة، بناءً على طلبهم، ليفقهوهم في الدين، ويقرئوهم القرآن، ويعلموهم شرائع الاسلام ، فغدروا بهم ، فقتل منهم من قتل ، ،وبيع مَنْ بيع إلى قريش ، لتتصف منهم بمن قتل من سراتها يوم أُحد (٣) .

وصور كعبُ بن مالك — مَزْهواً — علاقة قومه برسول الله (ص) ومشاورتهم له ، ونصائحه لهم في أسلوب مواجهة الأعداء، وتوطين أنفسهم على البذل والفداء، بقوله (٤):

وفينا رَسولُ اللّهِ نتبعُ أمرَهُ ... إذا قال فينا القولَ لانتطلَّعُ
تدلى عليه الروحُ من عند ربّه ... يُنزَّلُ من جوّ السماءِ ويرفعُ
نشاورُهُ فيما نريدُ وقَصرُنا ... إذا ما آشتهى أنّا نطيعُ ونَسمعُ
وقال رَسولُ اللّهِ لما بَدوا لنا : ... ذَرُوا عنكُمُ هولَ المنيّاتِ واطمعوا
وكونوا كمن يَشْرِ الحياة تقرّباً ... إلى مَلكٍ يحيا لديه ويرْجَعُ
ولكنْ خُذوا أسيافكم وتوكلوا ... على اللهِ ، إنّ الأمرَ للّهِ أجمعُ

(١) نفس المصدر : لابن هشام حـ٢ص٢٩٤، وديوان حسان بن ثابت: ص ١٣٥ — ١٣٦ .
(٢) نفس المصدر : حـ٣ص١٨٦، وديوان حسان بن ثابت: ص ٣٠٧ .
(٣) نفس المصدر : حـ٣ص١٧٨ — ١٨٣ .
(٤) السيرة النبوية : لابن هشام: حـ٣ص١٤٠ — ١٤١، وديوان كعب بن مالك: ص ٢٢٤ .

فهم يشاورونه فيما يعترضهم من القضايا ،وما يضطرب في نفوسهم من الخواطر والأفكار ، وهو يقبل عليهم ويصغي لهم، ويقودهم إلى الرأي السديد والفكر الصائب ، سواءٌ في السلم أمْ في الحرب .

وكان تاريخ اليهود مع رسول الله (ص) في المدينة حافلاً بالكيد والمكر ، مما اضطر معه إلى اجلائهم وقتل أعيانهم المتطاولين عليه بالشتم والهجاء .

فقد روى ابن اسحاق خبر إجلاء بني النضير ، بقوله: « ثم خرج رسولُ اللهِ ، صلى الله عليه وسلم ، إلى بني النضير يَسْتعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر ، اللذين قتل عمرو ابن أمية الضمريّ ، للجوار الذي كان رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، عقدلهما،... وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، يَسْتعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا :نعم، ياأبا القاسم ، نعينكَ على ماأحببتَ ، مما استعنْتَ بنا عليه ...» ولكنهم أضمروا الغدرَ به والقضاءَ عليه بالقاء صخرة من مكان عالٍ ،فدفع اللهُ كيدهم إلى نحورهم ، وتجهزَّ رسول اللهِ لحربهم ، ثم زحف اليهم ، واحدق بحصونهم ،حتى أخرجهم منها، وحماوا ماخفَّ حمله من متاعهم ، وتركوا ماسوى ذلك له (١) .

فهو حَدَثٌ تفرّد به رسول الله ..

أما قتل سراة اليهود وأعيانهم فقد تمثل ذلك بكعب بن الأشرف ، الذي ظهر مناوئاً للرسول (ص) والمسلمين ، معلناً عن عداوته ، غبَّ معركة بدرٍ ، مطلقاً لسانه بالشعر ورائياً أصحاب القليب من قريش ، حتى آذى الرسول ، فقال: « مَنْ لي بابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة ، أخو بني عبد الأشهل ، : أنا لك به يارسول الله ، أنا أقتله، قال : فافعل إنْ قدرتَ على ذلك » . فشمّر للامر ، واستعان بآخرين نهضوا معه ، ولبوا نداءه ، حتى تمكن منه غدراً، واختلفت عليه السيوف فمزقته وأخمدت أنفاسه ، واستراح الرسول والمسلمون من لسانه (٢) .

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام: ج٣ ص١٩٩ — ٢٠١ .

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام : ج٣ ص٥٥ — ٦٠ .

فهو حدث كان للرسول فيه النصيبُ الأوفى ، وإنْ أسهم فيه آخرون، وتركوا آثاراً تدل عليهم :

فما لَوْن حديث الشعراء عن هذين الحدثين ، وما موقعُ الرسول فيهما ؟

تناول قيسُ بن بحر الأشجعيّ حادثة إجلاء بني النضير فأهتم بالرسول أهتماماً خاصاً، وادار الشعر عليه ، وأصفاه وأصحابه الذين أحدقوا به صفوة الحديث ، فهو العلمُ الفردُ الذي تميزّ عن الجميع ،والمعنيّ بالبيان،والمنصور المؤيدُ من الرحمن، بقوله (١) :

أهلي فداءٌ لامرىء غيرهلك ... أحلّ اليهودَ بالحسيّ المزنّمِ
يقيلون في جَمْرِ الغضاة وبدّلوا ... أهيضبَ عودي بالوديّ المكمّم

فالرسولُ (ص) أحلّ اليهودَ في دار غربةٍ وقفر، تركوا مكانهم العامر بالنخل إلى آخر مجدب :

لقد نهض الرسول اليهم بالرجال المشمرين للحرب ، المستعدين لها بالخيل والعتاد: —

فإنْ يَكُ ظني صادقاً بمحمد ... ترَوا خيلَهُ بين الصلا ويَرَمْرَمِ
يؤمُ بها عمرو بن بهثة إنّهم ... عدوّ ومَاحيٌ صديق كمجرمِ
عليهن أبطالٌ مساعيرُ في الوغى ... يَهزون أطرافَ الوشيج المقومِ
وكلّ رقيق الشفرتين مهنّدٍ ... توورثن من زمان عادٍ وجرْهمِ

ولما كان الرسول (ص) — على هذا النحو من الاستعداد والقوة فينبغي لقريش أنْ تدرك ذلك فترعوي ، وتؤوبَ إلى الحق ، وتتخضع لمحمد فهو النبيُّ المعان بروح القدس ، والمؤيد من الله : —

فمن مبلغ عني قريشاً رسالةً ... فهل بعدهم في المجد منْ متكرّمِ
بأنّ أخاكم فاعلمنّ محمداً ... تليدُ الندى بين الحجون وزَمْزَمِ
فدينوا له بالحقِ تجسمْ أموركم ... وتسموا من الدنيا إلى كل معْظمِ
نبيٌّ تلاقته منَ اللهِ رَحْمةٌ ... ولاتسألوه أمْرَ غيبٍ مرجّمِ
فقد كان في بدرٍ لعمري عبْرة ... لكم ياقريشاً والقليب الملمّمِ

---

(١) نفس المصدر : حـ٣ص ٢٠٥ .

غـداة أتى في الخزرجيـة عامداً ... اليكم مطيعاً للعظيم المكـرّم
معانـاً بروح القدس ينكي عـدوّه ... رسولا من الرحمـن حقاً بمعلَم
رسولاً من الرحمن يتلو كتابَـهُ ... فلما أنـار الحق لم يتلعثـم
أرى أمره يزداد في كـل موطنٍ ... علـواً لأمرٍ حتمـهُ اللهُ محكـم

لقد جعلَ ماحل باليهود ذريعة للحديث عن رسول الله (ص) من حيث جلال النبوة وعزّة المأثر واجتماع الأصحاب :

وقصّ رجل من المسلمين حادثة أجلاء بني النضير ومقتل كعب بن الأشرف ، كي يتدبر الناس حقيقة محمد ، الذي أصطفاه الله من بين الخلق ، وخصّه بالنبوة ، بقوله (١) :

عَرفتُ ومَنْ يعتدلْ يَعْرف ... وأيقنتُ حقـاً ولـم أصْدِف
عـن الكلـم المحكم اللاّء بمنّ ... لدى الله ذي الرأفـة الأرأف
رسائلُ تـدرس في المؤمنيـن ... بهن اصطفى أحمـدَ المصْطفى
فأصبحَ أحمدُ فينـا عزيـزاً ... عزيزَ المقامـةِ والمـوقـف
فيأيهـا الموعدُوه سَفـاهـاً ... ولم يأتِ جَوْراً ولم يَعْنـف
أنسّم تخافون أدنى العـذاب ... وما آمنُ اللهِ كالأخـوف
وإن تصرعـوا تحـت أسيافـه ... كمصْرَعِ كعـبٍ أبي الأشرف
غـداة رأى الله طغيـانَـهُ ... وأعرض كالجمـل الأجْنـف
فأنـزل جبريـلَ في قتلـه ... بوحْـي إلى عَبْـده ملْطـف
فـدسّ الرسولُ رَسـولاً لـه ... بأبيض ذي هبّـةٍ مـرهـف
فباتَتْ عيونٌ لـه معْـولات ... متى ينعَ كعبٌ لهـا تـذرف
وقلـن لأحمـدَ ذرْتَنـا قليلا ... فإنّا من النّوح لم نَشْتـف
وأجلى النصيرَ إلى غـربـةٍ ... وكانوا بـدارٍ ذوي زخـرف
إلى أذرعـات رُدَافى وهـم ... على كل ذي دَبَـرٍ أعْجـف

كان كعبُ بن الأشرف قد طغى وأعرض عن الحق ، فأنزل اللهُ جبريل إلى محمد (ص) بأمره بقتله ، فدسّ له رسولا معدّاً أسلمه إلى حتفه بسيفه المرهف ، وترك النساء معولات عليه باكيات :

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام : ج٣ص٢٠٧ - ٢٠٨ .

وكان بنو النضير قد نزل بهم غضب الرسول ونقمته ، فأجلاهم عن ديارهم إلى اذرعات بالشام ، ودفعهم اليها على الصّعْب والذلول ، من غير أن يرفق بهم أو يعطف عليهم: وما حل بكعب وبني النضير خير مثل لكل متنكب عن الحق ، مشاق للرسول مجاهر بالعداوة والشنآن :

وذكر كعب بن مالك بدوره أجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف : (١)

لقد خزيتْ بغدرتها الحبـــورُ كذاك الدهر ذو صَرْف يَـدور
وذلك أنهـم كفروا بـربٍّ عزيز أمرُه أمرٌ كبيـــرُ
وقـد أوتوا معـاً فهماً وعلماً وجاءهم من الله النذيـــرُ
نذيرُ صَادِقٌ أدىً كتـابـاً وآيات مبيّنـــة تنيـرُ

فقالوا : ماأتيتَ بأمرٍ صـدقٍ وأنت بمنكرٍ منّا جَديـر
فقال : بلى ، لقـد اديتَ حقاً يصدّقني بـه الفهمُ الخبيـرُ
فمـنْ يتبعْـه يهْـدَ لكل رُشْدٍ ومَنْ يكفرْ به يجزَ الكفورُ

إنّ رسولَ الله (ص) النذيرُ من الله إلى اليهود ، وهو نذيرٌ صادق معه كتابٌ ينطق بالحق ، فأعرضوا عنه وأنكروا ماجاء به وتمادوا في الإعراض والأنكار ، ولكن لم يعرِضْ عنهم ، بل حاورهم وأوضح لهم حقيقته وبرهان ماجاء به ، فهو الهداية للمتبع المطيع ، والجزاءُ العادل للجاحد المنكر :

لقد ساق كعب بعضَ هذه الحقائق على هيئة حوارٍ جرى بين الرسول وبين اليهود ، بسطتْ فيه الأدلة ، فكانت أدلة اليهود هي الانكار الصريح الذي لاتين فيه ولا تراجع وكانت أدلة الرسول هي البيان والقرآن ، وما يحمله من الفلج للمؤمن والمعترف والخسران المبين للحائد عن القصد :

ولما كان اليهود قد شربوا غدْراً وكفراً لهذا سلّطه اللهُ عليهم ونصره وأخذ بيده ، بعد أنْ بلغوا الغاية في الانكار وأصرّوا واستكبروا استكباراً : —

فلما أشربـوا غدْراً وكفـــراً وحَادَ بهم عـن الحق النفـورُ
أرى اللهُ النبيّ برأي صـدقٍ وكان اللهُ يحكـمُ لايَجـورُ
فايّدهُ وسلطـه عليهـم وكان نصيره نعـمَ النصيـرُ

---

(١) السيرة النبوية : لابن هشام ج٣ص٢٠٩ — ٢١٠ ، وديوان كعب بن مالك : ص٢٠٣ — ٢٠٥.

ولهذا اوعز الرسولُ إلى أحد المسلمين قتل كعب بن الأشرف ، فصدع بالأمر ، ونهض للغاية ، وجعل المكر السبيل المأثور إلى نيل مأربه من عدوه ،حين أنزله من أطمه ليلاً ، ثم ثم توائب عليه الرجال بسيوفهم ، فغادوره صريعاً ، وقد هدّ قومه مصرعه ، فتطامنوا ذلاً وفرقاً ، حين قتل سيدهم في عقر داره وبين أهله وعصبته : —

فغودِرَ منهم كعبٌ صريعاً ... فذلّتْ بعد مَصْرعه النّضيرُ
على الكفين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهّرة ذكورُ
بأمر محمدٍ إذ دسّ ليلاً ... إلى كعب أخا كعبَ يَسيرُ
فماكره فأنزله بمكرٍ ... ومحمودٌ أخو ثقةٍ جَسورُ

فالرسول هو الآمرُ ، وقاتلُ كعب هو المستجيبُ للأمر :

ثم كان زَحفُ الرسول إلى بني النضير بالأنصار والحماة المؤازرين ،فد عاهم إلى الصلح فَصدُّوا ، فذاقوا وبالَ أمرهم ، عندما طردوا أقبحَ طرد، إذ تقاسمَ كلُ ثلاثةٍ منهم جملا: وتوجهوا صوبَ بني قينقاع ،وخلفوا وراءهم مظاهرَ الخيرِ والنعمة العريضة من الدور والنخيل ! —

قتلك بنو النضير بدارِ سوءٍ ... أبارهمُ بما اجترموا المبيرُ
غداة أتاهمُ في الزحفِ رهواً ... رسولُ الله وهو مبهم بَصيرُ
وغسّان الحماةُ موازِروُهُ ... على الأعداء وهو لهم وزيرُ
فقال السّلمَ ويحكمُ فصدوا ... وحالفَ أمرهم كذبٌ وزورُ
فذاقوا غبَّ امرهم وَبالاً ... لكل ثلاثة منهم بَعيرُ
وأجلوا عامدين لقينقاع ... وغودِرَ منهم نخل ودورُ

وهكذا اتخذ الرسول هذه الهيآت ، تبعاً للمواقف والأحوال ، وحرص كعب بن مالك أنْ يمكث مع كل موقفٍ ، ليوفيه حقه من البيان :

ولم يغفل حسّان بن ثابت أنْ يذكر ماأصاب اليهود من بني قريظة من البلاء للعظيم، عندما أتاهم الرسول الكريم يَهْوي بالفرسان كأنهم الصقور(١): —

غداة أتاهمُ يَهوي اليهم ... رسولُ اللهِ كالقمرِ المنيرِ
له خيلٌ مجنبة تعادي ... بفرسان عليها كالصقورِ

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام ج٣ص٢٨٤، وديوان حسان بن ثابت: ص ٢٤٥.

فها نحن أولاء أمام شخصية الرسول (ص) كما اتضحت في شعر السيرة النبوية لابن هشام ::

شخصية أحدقت بها صفات وعلاقات متباينات ومؤتلفات ، فتح كواها أبو طالب ، حين دعت الدواعي والأسباب ، ودلف آخرون من بعده ، كانت تستقرفي عقولهم أنماط من الثقافة ، وضروب من الارتباط بالرسول مصدر الوحي والإلهام:

لقد كانت الصفات بين قديمة مَعْهودة وبين جديدة غير مَعْهودة، سواء منها المادية الملموسة أم المعنوية المحسوسة ،وبخاصة في الاعتذار والرثاء ، وما أفصحا عن مظاهر الهيبة والجلال والسلطان ، وعنف المشاعر والانفعالات :

وكانت العلاقات بدورها قديمة مَعْهودة وبين جديدة غير مَعْهودة ، مادامت هناك أحداث تترادف، ومعارك تثور ،وفئات تتآلف وتتباغض، من مشركين ويهود ومسلمين، وتسخر شعراءها لإلوغ مآربها، من الجهر بالعداوة ، والاصرار على المشاقة والخلاف ، والوقيعة والكيد والارجاف ، ومن الاعجاب والحب والزهو بالمآثر والافعال وتسجيل المواقف والأقوال :

مصادر البحث

السيرة النبوية : لابن هشام – تحقيق الأساتذة مصطفى السقا ،وابراهيم الأبياري، وعبدا الحفيظ شلبي – نسخة مصورة بدار احياء التراث العربي بيروت ، لبنان :

ثم استعنت بدواوين الشعراء الذين وردت أشعارهـــم في السيرة من ذلك ::

١ – ديوان حسّان بن ثابت – تحقيق الدكتور سيد حنفي حسنين – مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٣ م :

٢ – ديوان العباس بن مرداس السلمي – جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري – مطبعة دار الجمهورية ، بغداد – ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م :

٣ – ديوان عبدالله بن رواحة – دراسة وجمع وتحقيق الدكتور حسن محمد باجوده، مطبعة السنة المحمّدية – القاهرة ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م :

٤ – ديوان كعب بن زهير – نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠م – الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة –

٨ – ديوان كعب بن مالك – دراسة وتحقيق سامي مكي العاني – الطبعة الأولى – مطبعة دار المعارف ، بغداد – ١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م.